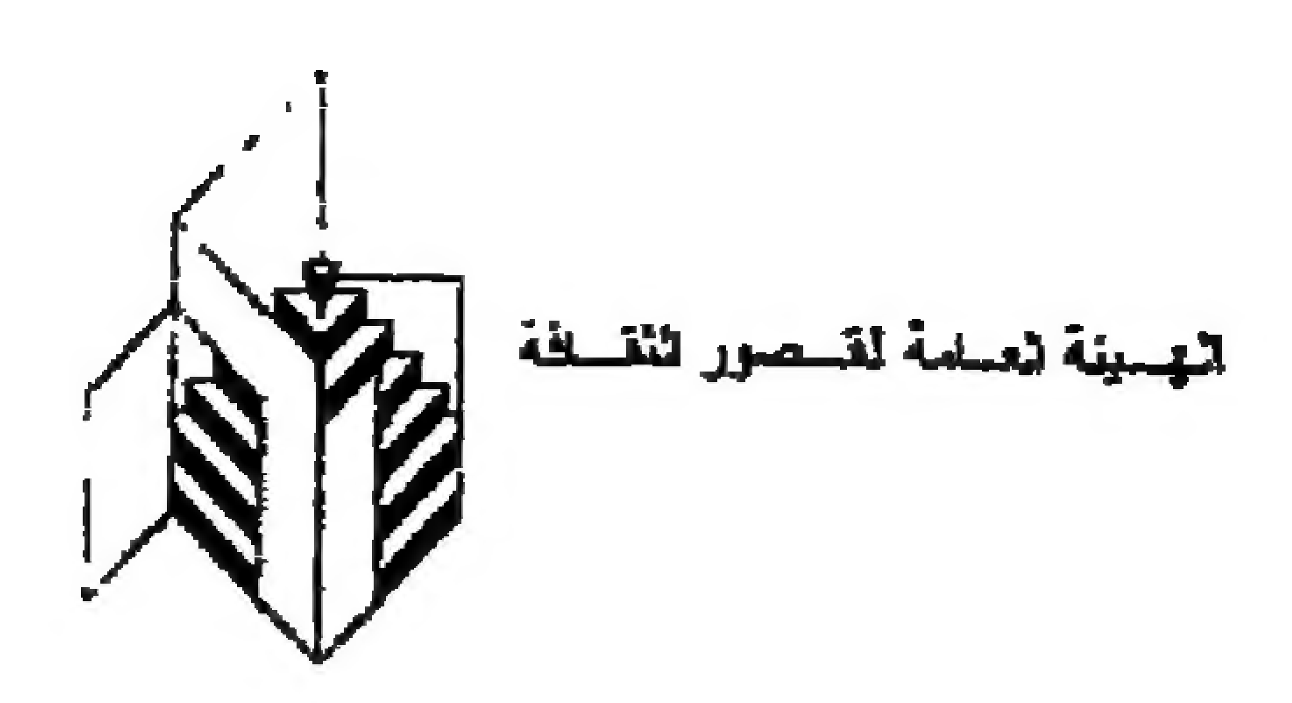



# حضن الجبل

اللوحة لفنان الشهر حامد عويس

د . نعيم عطية




# حضن الجبل

د. نعيم عطية

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

٣٢

• حضن الجبل

• رواية

• د. نعيم عطية

• الطبعة الأولى

• مطبوعات الهيئة ( ٣٢ )

• القاهرة ١٩٩٩

• رقم الايداع : ٩٩/١٠٥٩٦

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦

• المراسلات :
باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١١٦ أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١

## إهـداء

إلى الصديق العزيز، الناقد الكبير، الأستاذ الدكتور شكرى عياد، مع عميق الود والتقدير.

ن.ع

# مجرد إحساس

رسموا لى صوراً عديدة، وأقاموا لى نصباً فى كل ميدان وعند كل ناصية، وأحيانا ثبتونى على الأسوار قائلين أننى أرهب الأعادى. وقد دهشت أن البعض منهم خافوا وولوا الأدبار هاربين. أكنت حقاً أخيف؟

صنعوا منى نماذج كثيرة، بعضها بالغ الحسن والملاحة، حتي كدت أنا نفسى لا أعرف نفسى. هل إلى هذا الحد كنت فاتناً، وإلى هذا الحد لاتشوب وسامتى شائبة؟ على أننى سريعا ما اقتنعت بذلك، وليس فى هذا أدنى غضاضة. فالأعتبر إذن أننى كنت حقاً وسيماً فاتنا، وأن بطنى المترهل، وجلدى، وتلك البثور والثآليل المتناثرة علي أجزاء مختلفة من جسمي، لم يكن كل ذلك بقادر أن يخفى عنهم ما لم أكن أراه أنا نفسى، فليكن. كثيرون يُخْدَعُون فى أنفسهم، ويظنون بأنفسهم الدمام، وهم مثلى على غاية من الاغراء والوسامة.

نسبوا إلى أوصافاً كثيرة، وألبسونى ثياباً أرجوانية فضفاضة،

وأجلسوني على العرش في احتفالات صاخبة. أما أكاليل الغار فقد تتابعت على هامتي في كل حين ومناسبة.

نعتوني ذات مرة بالإحسان والسماحة، وهذا ما لم يكن بامكاني أن أصدقه، إلا بعد لأي ومعاناة ولجاجة. وعندما رأيت يدي النحيلة تمتد في نقش على حجر لتربت في الهواء على رأس لم يكن له وجود أمامي، قلت لنفسي.. لعلهم يذكرون تلك المرة التي أُكْرِهتُ فيها على فعلٍ، لم أكن آلفه، ولا أحبه كثيراً.

ألبسوني قناع ثور تارة، وتارة أخرى فروة أسد، وزعموا أن الأسود والثيران فيها من صفاتي الفحولة والشجاعة، ولهذا فهم يعتزون بلبس قرونها وجلودها تبركاً بي وتيمنا، لعلي أحلٌ فيهم، كما حللتُ بالثور والاسد، وأن كنت أصدقكم القول أفكر في التمساح كلما تحدثوا عني، وفي الأفعى ذات الصليل. كما أرثي لذلك الذي ألصق بكتفيه جناحي نسر، وأعتقد المسكين أنه يستطيع أن يعلو كثيرا كثيرا مثلي، فلما طلعت الشمس، وسلّطت عليه أشعتها الدافئة ذاب الصمغ فتردى الى الهاوية، وهو جزاء من يتطاول علينا، ويتجاوز الحدود عامداً.

وعلي أي حال، لم يكن شكلي في هيئة ثور أو أسد بالشيء المنفر. وانما الذي قززني من نفسي هو ذلك التمثال الذي نحتوه لي،

تارة من نحاس وتارة من خشب، وألسنة اللهب تبظ من عيني وتبخ من أنفي وأذني. وكأنه لم يكن يكفيني لأُردِىَ بنيراني الاعداء صرعي، فأمسكوني بالاضافة إلى ألسنة اللهب المنبعث حولي - أمسكوني سيفا ثقيلاً صدئا، وزعموا أنه بتار لا يُقاوم.

وما كان أشد رعبي من اصرارهم علي مناداتي بالغازي، والمكتسح، والذي لا يقاوم، والعدواني، والمحارب القوي ذي التصميم علي النصر، تاركا وراءه النار والدمار.

على أن آخرين رسموا لي صوراً ضحكتُ لها كثيراً، بعد أن طردت عن قلبي أمواج الدهشة والحيرة - رسموني راقصاً، ولي من الاذرع المتماوجة ما يزيد علي ثمانية، وأيضا من السيقان التي تضرب الأرض وتقفز عالياً ما يزيد على هذا العدد، ولكن في كل الأحوال العدد زوجي. وقد جعلوا أصابع يدي في أوضاع تومىء ايماءات لها دلالات يقولون أنها رمزية.. أما نظرات عيني، وإن كانت ما عادت ترهب، فحدث عنها ولا حرج.

وامتلأتُ خيلاء عندما نسبوا الي مغامرات حب ومضاجعات مع جميلات، وأطلقوا عليَّ «الديك الذي لا تأمنه دجاجة في عشها» ولكن الذي لم أحبه فيما رووه عني قولهم أنني لم أضاجع تلك الجميلات البريئات باختيارهن، بل أنني تحايلت عليهن وغررت بهن، وفي

النهاية كى أقدم لهن تعويضاً واعتذاراً أعطيهن أولاداً لهم حسنات وصفات ليست لسائر البشر.

كنت أفضل أن تحبنى ولو واحدة.

بحثت لى عن قصة حب حقيقية، فوجدت فى الالبوم صورة صفراء باهتة منسيَّة. حمداً لصانعى الأساطير، وجدت من جابت الأرض بحثاً عن أشلائى، حتي اذا جَمَعَتها، وتلت عليها بعض الأسحار دب فى الحياة، فنهضت، بمعاونة ابنى الذى به سررت من تلك المرأة الوفـيـة، كى أقـضى على الشـر الذى تمثل فى.. فى.. أتعرفون فيمن؟ أكاد أخجل من ذكر ذلك.. فى أخى. أتسمعون؟ فى أخى! فيالها من دنيا خئون، لا يأمن فيها لغده من أقرب المقربين اليه أحد.

وأنى لأتساءل علي ضوء ذلك عما اذا كانت كليو الصغيرة محقة عندما بادرت الي قتل أخيها لتنفرد هى بالعرش دونه؟

فى النهاية، من أنا؟ وضعوا عنى – كما ترون – تصورات كثيرة، لكننى لا أعرف من أنا، فهل سيعرف هؤلاء – ومن يجيئ بعدهم – كنهى، دونى أنا؟.

يا صاحب الصوت الهامس المدوى، من أنت؟

لا تسألنى . لست كامل الوضوح. لا أبدو إلا بمناسبة أحداث

قليلة وسرعان ما انزوي، اختفى من حيث جئت، دون أن تعرف شيئاً عن أصلي، ولا عن مظهري، أو ميولي، ونزواتي الخاصة. بدون وجه أنا ولا قسمات. لن تعرف لون عيني مثلاً، و لا طول قامتي. أبدو لك كومضة عابرة، ولا ألبث أن انطفيء، وأغيب في الظلمات. لا أريدك على أي حال أن تُشْغَلَ بي، وأود أن تبادر فتنساني.

تسألني ما اسمي، فلا أجيبك، لا لأني لا أريد الاجابة، بل لأنني أوقن أن الاسماء لا أهمية لها، أو على اى حال فلنرجيء ذكر اسمي الآن. سوف تعرفه في وقت متأخر - لا اجزم بذلك، وأقول ربما - لأن معرفته الآن قد تكون حائلاً دون وضوح الرؤية. ولذلك يجدر ، بل يجب، إزاحته من طريقك وطريقي. سوف يتردد اسمي مرتين أو ثلاثة في ثنايا ما سأقصه عليك، ولكن أعود فأكرر لك أن الاسم لا معنى له. وكل من سأحكي لك عنهم يمكن أن يجلس بعضهم محل بعض، ففوزي يمكن أن يضحي نعيم، ونعيم كان في موقف فهيم، فما الجدوى اذن في مسار هذه الحياة الحافلة بالوقائع المنطمسة أن نتشبث بالاسماء ونصر على معرفتها؟.

دعني أخرج من حافظتي صورتي. سوف ترى أنها صورة رجل مجهول، سوف تمضي فتتساءل هل له وجود حقيقي. ليكن ذلك، فإني لا أريد أن اجتذب اهتمامك بي، فتتردى فيما هو نوع من «خداع

النظر». أخالك تقول ما الذى يريد منى هذا اللحوح الدعى؟ سوف أجيبك، ولن أتردد فى إجابتى. إنى أهمس إليك قائلا أريدك أن تزيد من معرفتك، فقد آليت علي نفسى أن أتابع. أن أنظر الى ما حولى، وأسجل. وكى تتأتى هذه النظرة الموضوعية يجب أن تتلاشى أنت، وأتلاشى أنا. أن نرى أنا وأنت من خلال هاتين العينين الغائبتين، ولن تضفى نظرة كل منا هذه على الشيء المرئى ألواناً وظلالاً، بل فحسب ستجعله مرئياً، وهذا ما ابتغيه واسعى اليه. لاتعتقدن أننى بالكلمات أتلاعب. أنى اتستحثك وأغريك على الاقتراب قدر الامكان من حقيقة ظلت محاطة بالتحفظات والأكاذيب، فقد مضت الجثة تتضخم وتزحم أرجاء الوجود الذى كانت تدعى يوما ما أنها انما تستكشف أرجاءه.

لن يكون الأمر بالنسبة لك سهلاً زول الأمر، فأنا لا أدعوك إلى حفل ترفيهى، وإنما أدعوك لأجابهك بالصعاب. ولذلك أيضاً دعك من الاسترخاء، فستشق طريقك عبر تيه متشابك الدروب.

لا تسألنى إذن عن اسمى. ربما أكون «أبا الهوا» ويكتبونه أحيانا «أبا الهوى». لايعنيك فى شيء اسمى، ولا يعنى أحداً، ولا حتى أنا. اعتبرنى بلا اسم. اعتبرنى رقماً، وبلا ملامح خارجية، وبلا هوية، فقد مزقتها منذ أمد، وصرت أمشى فى الليل بغيرها. ربما أريدك أن تعرف فحسب أننى مصاب بتآكل فى العمود الفقرى، وبالتهاب فى

الشرايين، ومعرض لأن أصاب للمرة الثالثة بجلطة فى الساق أو فى غيرها، كما أعانى من أكياس دهنية فى مواضع داخلية من جسمى.

كنت أميل قديماً الى الشكوى. ثم مللتها، وصرت لا أمارس هذه المذلة.

- انتهى، ما عاد لك معين يأخذ بيدك مثل الأعمى، ويقودك عبر الدروب، وأنت مطمئن اليه. انتهى. لم يعد للسكينة وجود عليك، إذن، أن تسترجع المعاناة منذ البداية. ادفع الحساب، وانهض خارجاً من ذلك المقهى الزخم. سر فى المتاهات الوعرة. سلبيتك التي كانت من قبل دعة وكسلاً، راحة مزعومة، سحب بساطها من تحت قدميك. حذارى، سوف تتحرك علي أرض زلقة. أفق إذن إملأ رئتيك بالهواء، وتأهب. الآن أقول لك، وأكرر عليك القول، «تأهب».

# متاعب ليلة سادها الظلام

تعال، طلبتك تحققت. السنين الطوال، تمنيت أن نفض طلاسم وألغازاً. ها أنت هنا ستكتشف الأسرار كلها. ستنزاح عنك الغشاوة. سينحسر عنك عبء المجاملات. ستكون هنا، أردت أم لم ترد، فى سكونك، خشناً، ضارياً، وفى عزلتك التي لابرأ لك منها متوحشا. وبلا مناظير ستبصر، وتعاين، وتدرك. الآن ستعيش الحقيقة. وسيتاح لك كل ماتمنيته من قبل، يامن كنت على الدوام غريبا فى رؤاك، جموحاً فى تصاويرك. ستركب خيولاً، وتلصق فى كتفيك أجنحة. وبلا وهم ستحيا خيالا، يفوق كل ما رأيته حتى فى أحلامك. أصبح التوق حقيقة. ستسبح هنا مسجلاً ومصوراً وكاشفاً لأسرار، وسيكون بمقدورك أن تعيد تقييم حساباتك. وتعرف بكل دقة إجابات لأسئلة يلفها الغموض. أصبحت التخمينات والاجتهادات إذن حقيقة. وسيهدأ بالك، فما عاد الغموض غموضاً، فقط سوف تحتاج الى التدريبات مناسبة، وإلا فكما جئت سترحل. وهذه المرة سوف يكون

الرحيل رحيلا بحق.

انتبه. لا ألعب بالألفاظ مثل غيرى. سوف تسألنى إذن، ما القدرات التى أعطيت لك، هنا؟ وسوف أجيب «بامكانك أن تركز، وتسجل، وتحلل، وتحيل ما تتحصل عليه الى نبضات تكفئ لملئ موسوعات وموسوعات بالمعلومات والبيانات التى أمكن جمعها من أماكن بأعماق الكون سحيقة». بل وسوف يكون بامكانك أن تدلى فى بعض الأحيان. بردود خاصة. احمل زكيبتك علي ظهرك الذى وهن، والتقط كل شاردة وواردة من المويجات الضوئية أو الصوتية أو مهما كانت، فالامكانات لازالت متاحة. لا تجعل أى شيء يثبط من عزيمتك.

أعرف. نعيش وسط بحيرة من المجارى والمازوت، ومخلفات مصانع، وركامات قمامة. بل أعرف أن مياه المجارى من حولنا ترعة فياضة، ولكن فيما مضى، كانت الريح تهب، وتفتح فى الماء ثقوبا، تسحب منها دموع الأسماك، وتنثر علي أديم الأرض زهوراً تنبت فى الأرجاء أشواقاً، وآمالاً، وأحلاماً، لا تجعل شيئاً مهما علت زخامته يصرفك عن الاعجاز الأعظم لا تجعل شيئاً يمنع من وصول الموجات اليك. دعك من صيد البط والأسماك. سوف أجعل منك صياد موجات، وعندئذ سوف تشاهد ما لم تقع عليه عين من قبل. أنت أشبه بطفل. جاوزت السبعين، لكنك طفل. صر صياداً لموجات المد العالية

من طاقات تدور فى دوامات حول الثقوب السوداء. هناك فى الأعماق.

وجدت هنا المغزى من وجودى كله. بعد الانفجار العظيم بسطت شباكى.

أسبح ضد الزمن، اقفز أسواراً كلما تجاوزت حاجزاً، بدت لى حواجز أخرى. ومازلت أسبح واقفز. ويبدو أنه لازال على أن أسبح وأقفز طويلاً، طويلاً، لكننى بهذا، وبهذا وحده، وجدت أن لوجودى الممتد معنى.

أحببت فيما مضى تمثالاً رخامياً. رحت أتحسس جسده الأملس متيماً، لكننى اكتشفت أن ما بينى وبين هذا التمثال غربة، مضت تتسع هوتها، عانيت أول الأمر مشاعر مريرة من الحزن والاحباط ما عاد التمثال الذى كان ولا زال جميلاً يستثيرنى. وضعت رأسى علي كفى. لم أستطع أن أقاوم نداءً وافداً من وراء أسوار المتحف حيث ترقد حبيبتى الرخامية. تركت نفسى لمستقبل غامض. اجتررت قلقاً. أيامى تقلت منى. والفحيح آت من بعيد، فحيح فولاذى أرقط.

أيها العصفور الحزين، عليك أن تصبح نسراً، مخالبك من حديد، وقلبك بطارية تنبض موجات . ولى زمن أغانى الحب، تنشد تحت نافذة الحبيبة. اصنع لنفسك تمثالا جيدا، ولو من الحديد الخردة، فلن

ترق «فينوس» لحالك.

انطفأ الحب. واستحالت الجمرة المتقدة رماداً تحت رماد.

للضرورة أحكام، ومن منجزات التكنولوجيا صنع لنفسه تمثالاً.
تجاوز علاقات الحب السهلة، الكتابات المنقوشة علي الجدران تآكلت
وانطمست، بل أن الجدران ذاتها تهاوت. وإذا كان مجلد الأساطير
باقياً، فمن اللازم أن يطوى فصل، ويفتح آخر.

# وقفة الطل على ورقة شجر

«آخرون ذهبوا إلى الحدود» بحثوا كي يعرفوا. ثم عادوا آخر النهار متعبين، لزموا الصمت. وأغرقتهم كآبة، ما لبثت أن استحالت لدى البعض إلى تصفيق وصياح، ولدى البعض استحالت قسوة متمادية، وكزاً على الأسنان.

فليرحلوا الآن ستحتجب بعد قليل الشمس والنجوم والقمر. وسنبقى غارقين في الظلمات. ليست المواسم والأعياد لنا، ولا حاجة بنا الى رقص أو نغم، بعد أن أصابتنا حوريات التراب بالصمم.

ولو عادوا من جديد؟ سيجدون الأبواب موصدة. سوف يدقون على صدورنا الجوفاء، ولا من مجيب. ما من أحد.

أدخلوك حديقة فسيحة الأرجاء، عالية الأسوار. مهملة على أى حال، أكوام من القمامة هنا وهناك تحت الأشجار. لا مفر من أسلوب الحياة هذا، حيث تتبول السكان، وتتبرز، وتنام، وتصحو، وتتناول الإفطار. لا عليك، المكان هادئ، نسائمه رطبة. لما الشكوى إذن؟ أنت

هنا أحسن حالاً مما كنت عليه هناك فى شقتك بالدور الثانى، إلى جوار أرملتك دائبة التحقير من شأنك والتقليل من جهدك، وابنتك التى تصحو الليل بطوله، وتبكى فى النهار ساعات غير قليلة.

وددت أن يتركوك فى العراء مسجى، لكنهم خشوا عليك أن تضيع فى هذا الخلاء المبدد. زحفت معهم إلى جدار. أجلسوك فى حجرة، أوصدوا عليك بابها. سوف تكون أحسن حالا هنا. ستنام وتستريح من الصداع الذى كان ينتابك، فتشير إلى رأسك، وتنظر إلى من حولك نظرات استعطاف، دون أن تستطيع الإفصاح. الشىء الوحيد الذى أعرف أنك ستعانى منه هنا، أنك لن تجد مقهى قريباً، تركن إليه، وتلعب بصحبة بعض من أرباب المعاشات النرد والدومينو لقتل الوقت، والوقت هنا ممتد، يستدعى القتل، لكن الأمور التى تبدو صعبة أو متعذرة أول الأمر لا تظل صعبة ومتعذرة على الدوام. لن تلبث أن يتبدل الحال بالصبر، وطول البال. ستجد بعد حين من حولك بعضا من أمثالك. جاءوا إلى هنا، أو إن شئت الدقة جيئ بهم إلى هنا، لذات الغرض الذى من أجله جئت، أو جئ بك أنت أيضا. والآن، هنا، ستلعبون الدومينو والنرد، وربما لعبتم أيضا الكوتشينة. ولكن حذارى فحسب من آكلى الجيف. وإن كانوا هنا أحسن حالا من آكلى الجيف الذين التقيت بهم فى سابق أيامك، فأولئك ينهشون

لحمك للإساءة إليك، وهؤلاء يريحونك ويريحون الآخرون منك، وخاصة في هذا الزحام الذى لابد فيه من إعادة ترتيب الأوضاع لاعتبارات الحيز المكانى والتلوث.

أغلقى الباب يا نجية، ولا تنبشى القمامة، هذا الصباح، أجل هذا الصباح - أكان صباحاً أم مساء؟ - أجل، هذا الصباح، وجد البواب فى الصفيحة أشلاء امرأة زنجية كانت. يقال ذلك.

أوجه القصور فادحة. والأيدى المستخدمة غير مدربة.

اغلقى الباب، ولا تنبش، دعينا نستأنف حديثنا، يا نجية.

ليس الخلل فى المكان، فالمكان هنا ليس بأسوأ من المكان الذى جئت منه. المسألة نسبية كما ترى. الاماكن كلها سيان، والخلل بداخلك أنت.

هنا سوف تقف بيت الثرى والثريا، سوف تأسر الطير وتطلقه، تكلم الجماد وتنطقه، وتقف على أوراق النبات وقفة الطل. هنا، سوف ينفسح لك مجال التخيل ويتسع لك مكان الصمت، فقد أضحيت بدورك صمتاً، أضحيت متخيلاً. هنا، لا أحد سيدخلك فى تجربة، فقد شبعت من التجارب، وتحدد من قبل معدنك. وأنت هنا بمنجاة عنه، فهو قد انتهى منك. وعلى ذلك، فأنت من شىء على الاطلاق لا تخشى، ومادمت لاتأمل، ولا تطمع، ولاتشتاق، فقد أقيم سد منيع

. هـ المعنى، كل المعنى. أما الأسلوب فهو يواكب اللامعنى، الذى المعنى الوحيد لكل أسلوب ومعنى.

سـغرق فى بحر النوم العميق بسرعة، ولن تتحايل على النوم. فالحياة هنا إلى الأبد. والليل هنا يسدل ستائره السوداء، والأرض من تحتك تدور، والأنجم فى السماوات من فوقك دوامات لا تهدأ.

واذا فتحت ذراعيك بالليالى فسيمتلئ حضنك ظلمة، وإذا مددت ذراعيك الى القمر ستعودان الى قفصك خاليتين من ضوئه. وحتى الشموع التى أوقدها لك أحباؤك عند مفرق الطريق ذابت وانطفأت.

قرأت على الباب لافتتك. أنت إذن كنت متواجداً، مجرد عابر سبيل أتريد أن تعود إلى هناك؟ لهذا السبب وحده تريد العودة؟ إذن. فأنت من جديد، لم تفهم. أنها تعطى لك مرة واحدة. ثمة أشياء أخرى للفهم عليك أن تعيها وتستوعبها. هنا، فى هذا الهدوء، وهذه العزلة، اشحذ فكرك، وحاول. ربما توصلت إلى الفهم الصحيح، وأدركت الجوهر. وعلى أى حال، فالأمر مثبط للهمم، فهناك أكثر من جوهر. وليس من السهل ألاَّ يتشتت فكرك بين جوهر وجوهر. ولكن عليك ألا تقف مكتوف اليدين، بليد الاحساس، هكذا. قم. حاول إلي حد الجنون، وليعل صوت نحيبك ولتذرف الدمع الذى قد يغسل ادراكك، ويجلو بصيرتك بالألم وحده ستفهم. فأقبل عليه، ولا تهرب، حتى لو

هرب منك، الحق به، واحقن به نفسك. اجرع حتى الثمالة كأسه. انه أكسير الحياة، أو تعرف ما الموت حقا؟ إنها تذكرة الدخول إلى هنا. ألا تعرف ذلك؟. وهذا المكان الداخل إليه مولود، لأنه يعطى محاولة رهيبة كى يفهم. أما هناك فالداخل إليه مفقود، لأنه لا يعطى فرصة للفهم، ولا يفهم، والخارج منه مولود، لأنه أضحى بامكانه أن يشحذ خياله إلى حد الجنون، وقد يفهم.

فى هذا الخلاء وهذه الغربة، أنعم حقا بما لم أكن لى به سابق معرفة. أنعم بحقيقتى. نزعت الأقنعة عن وجهى، ومحوت المساحيق. إلى الوراء، لا أريد أن أرجع.

عندما كنت تحلق كانوا يقولون فراشة، فألاً حسناً،، ملكاً. وعندما سقطت، وارتطمت بالأرض، فلابد أنك عرفت الآن من أنت حقاً.

لازالت الأرض الخراب من حولنا تنبت زرعاً أخضر، ومن بعيد، يفد من مكان ما، لا أحد يدرى أين، خرير ماء، ربما من جدول أو قناة أو ترعة، إلا أنه ليس بحراً، فالصوت ينساب ناعماً متسللاً باعثاً الراحة فى القلوب، وليس هديراً منبعثاً من موج يتلاطم، أو يندفع موجة فى إثر أخرى. لابد أنه ماء عذب يسرى فى عروق الأرض الجافة، فيروى غليلها، وليس ماء مالحاً، يلسع ويحرق.

عقب واحد على ذلك فقال «بل هو مصرف صحى، ليس ببعيد من

هنا، وهذا صوت المخلفات السائلة تنهال عليه، وتتدفق. من الجوب، تفد أدخنة وسحب ترابية. أهى من جديد، أعمال تخريب؟ لعل هذه المتاريس من حولنا لصد الهجمات، فلنستدر علي أعقابنا، اذن ونرتد داخلين ونصد عن نواتنا كل ما ليس منا.

على الأقل لن تموت هنا من العطش. الشيء الوحيد الذى نخشاه جميعا هنا هو الحريق، ولا شيء سوى الحريق. حذارى على الأخص أن تنشب النار بداخلك.

أتى السائل المنظف مفعوله. حل الظلام من حولنا. فى كل الارجاء إحساس بحزن دفين للرحيل عن الديار القديمة، وتمزق الصلات بالجذور، وعلى أى حال، فهم يأخذون معهم جزازات من حيوات، قديمة، تذكارات، وسوف تخبو فى كيان كل منهم، بدورها.

# طلبت أن ينقذك

اليوم نهضت مبتهجاً استيقظ بداخلي أمل ظننت من قبل أنه عاد له في عظامي وجود. عرفت أنك لازلت تذكرني، وانك لم تتخل عني. نهضت مبتهجاً. ما عاد يعنيني الفحيح ولا الصليل من حولي. تناولت سيجاراً ورحت أدخن. وفي المساء لعبت دوراً من الشطرنج ربحته، بعد أن فقدت أثمن القطع، حتى الملك كدت أفقد، لكن الأمل شيء عظيم فظيع، يجعلك تحارب حتي المعارك الخاسرة، وإذا بك في النهاية تكسبها.

طلبت أن ينقذك، لكنك نسيت أنك فتحت أبوابك على مصراعيها لعدوه، حتى أنشب فيك ذلك العدو أنيابه ومخالبه، وتصرخ الآن طالباً معجزة، طالباً أن ينقذك. ألا ترى أن الأوان فات على المعجزات التي من هذا القبيل؟ كن منصفا. اعترف، وفكر بطريقة أكثر واقعية.

في لحظات كثيرة تمنيت أن أجئ اليك، وها أنا جئت. اطللت من الباب. اقرأتني تحية الصباح، على غير عادتك. رشفة من قدحك

الورقى. أزلت بلسانك الوردى قطرة من القهوة علقت بحافة شاربك السفلى التى تظلل شفتك العلياو بل شفتيك، سألت هل بالإمكان؟ قلت لا أدرى، يجب أن تسألها. فسألت ولكن هل عادت. قلت أمين. التفت إلى باب الغرفة التالية، وسألتنى وأنت متى ستجهز؟ قلت حالاً ساعتين على الأكثر، ويكون كل شيء جاهزاً.

ومضيت فى الممشى الذى تتراص الأبواب المفتوحة على جانبيه إلى ما لا نهاية.ربما لتصل الى آخره، ثم تنزل الدرجات إلى دور سفلى. أو ربما كى تسأل ذات الأسئلة عند باب آخر من تلك الأبواب اللانهائية. أو ربما كى تقبع كعادتك فى ركن من الأركان متربصاً لمن لا أدرى، ولا لماذا أيضا لا أدرى.

من أحد الأبواب هناك، أتانى الصوت والحوافز؟ ثم سريعا جاء ردك القاعدة عدم جواز الجمع عاد الصوت يسأل والمشغولات الفضية؟ وعاد صوتك من تحت شاربيك يجيب سوف تتركها. هذا أمر. وتعالت خافتة من الآخر همهمات الاحتجاج، دون أن ترقى الى حد الجهر أو الافصاح بشيء.

حذارى. لا تجرب من جديد. كل شيء هناك مات. حتي الشجر يفرز بالنهار كربونا، والموج أضحى مثل تجاعيد على جبهة عجوز. كل شيء هناك تحجر . حاولت كثيراً أن تهرب من الفكرة، وأن

تطردها عن دماغك فى البداية يبدو لك الأمر جذاباً، تنبهر وتبدى إعجاباً، ولكن كلما مضيت تتأمل التفاصيل فتر حماسك، وتبدد فرحك، وأحسست فى النهاية أن الأمر كان مجرد خداع مثل سائر الخدع الأخرى.

تعال الى مقعد أكثر طراوة.

هنا الثعابين فى هيئة صلبان، والمسمومة منها تتشابك.ألم تحضر بعض الصور الخليعة؟ ولا الكتب البذيئة؟

كانت ستروج هنا، فهى فى كل مكان تروج حتى هنا، بل وعلى الأخص هنا. كان سيكسبك هذا شعبية كبيرة، فيقبل عليك العديدون يطرقون بابك، مترددين إليك، كي يتوصلوا الى طلبتهم.

طرق الباب. حتى لو تصنعت أنني لا أسمع، فسوف يفتح الباب بعد قليل.

مرحباً بالقادم، مرحباً، انتظرتك منذ أمد طويل. وها أنت جئت. ليس لى ما أقوله لك سوى لماذا تأخرت فى المجئ. هذا عتاب وترحيب اجلس. اجلس. أزح تلك الكتب من على الكرسى هناك، واجلس. دعنا نتحاور قليلا ونثرثر ألا تريد؟ ليس لديك وقت؟ حسنا. دقيقة سوف ارتدى معطفى، وأجئ معك. لديك إذن بالقبض؟ مجرد سؤال. متأكد أنت من سلامته؟ أليس فى الاسم أو العنوان خطأ أو لبس؟ أعرف

أنك لاتسهو، ولا تخطئ. ليس لديك وقت؟ جوادك تركته على قارعة الطريق، ولا تريد أن تتأخر؟ لماذا يا أخى، لم تصعد به إلى هنا؟ سوف كنت أكرمه ببعض العليق من ورق الكتب. تريدنى أن أصمت؟ تتعجلنى؟ تريدنى أن أنزل معك كما أنا؟ حسنا، فلنذهب كما ولدتنى أمى. أنا جاهز. تضحك ضحكتك الجهمة، وتقول قليلون من تجدهم جاهزين للنزول معك؟ كلا، يا صديقى، قلت لك أننى كنت أعجب لتأخرك فى المجئ، حتى أنه فى لحظة خطر ببالى أنك ربما لن تجئ. وكدت أطفئ الشموع، وإلى فراشى أهجع حتى الصباح. هيا، إذن ننزل. اطفئ انت الشموع، والحق بى. هاك المفتاح، اقفل به الباب، وتعال.

ها أنا إليك جئت. تقول أنك منحتنى أغلى شىء. إذن ماذا تريد منى، وأنت فى أى لحظة، تستطيع أن تنتزع منى ما منحت؟ وها أنت تذهب بى كى تنتزعه منى. ثم بعد ذلك – وليس قبل ذلك – يبدأ التحقيق.

كل يوم يفتحون حقيبتك. يقلبون محتوياتها. ينظرون فى كل الأركان، ويدسون أصابعهم. ثم يعتذرون اليك، ويغلقونها، ويعطونها لك. لكن بداخلك احساساً بأن ذلك لن يحدث يوماً، ولن تعاد اليك حقيبتك، ولذلك فأنت حتى لو سهى عليهم أن يفتحوها تفتحها لهم،

وتصر على تفتيشها. نظراتك إلى عيونهم تسأل «هذا سيحصل اليوم؟» وبأدب يردونها لك دون تفتيش. وتمضى. تدخل إلى حيث كتب عليك أن تقضى بقية يومك، الى جوار شباك لا يطل على شيء. تنظر الى الخارج من وراء زجاج ليس قابلاً للفتح، ولا للكسر أيضاً.

عندما يحتاجون إليك يؤدون أمامك حركات بهلوانية، فاذا ما قضيت لهم حاجتهم، تجاهلوك، وما عادوا يلتفوت إليك، حتى لو وقعت على الأرض، وتلفت حولك، علمك تجد من يقيلك من عثرتك، أعرضوا عنك، وشاحوا. حقا، لا أحد . لا أحد.

لم يبق لخلاصى، سوى القليل، بل القليل جداً، لكنى اتشبث بهذا القليل، حتي استحق من الرحمة من جديد.

وعندئذ ستتحقق المعجزة.

هذه الشوكة الصغيرة التي بقيت لك، تعهدها حتى تضحى رمحاً قويا، تطعن به التنين فى احشائه ، وتقضى عليه.

ربما افلت من قبضته. ربما. عندئذ سوف تلعب لعبة النهاية من جديد.

إنها حقيقة، يا من تتشبث بالحقيقة. أنه جاء لزيارتك ليلة أمس.

شعرت بالرعدة تجتاح الجسد، وكأنك فى كابوس صرخت حتى قفز ابنك الراقد على السرير الذى بجوارك، وزغدك فشعرت بالألم فى

ضلوعك من تأثير أصابعه الدقيقة النحيلة.

قلت «آى»!

واستيقظت.

تنفست الصعداء وزايلتك القشعريرة التى دفعتك إلى الصراخ مبهور الأنفاس، ولكنك كنت متأكداً أنه جاء، وغمرك من اخمص قدميك إلى كل شعرة من شعر رأسك الأشيب، كما تجتاح الموجة صخرة فى البحر وتغمرها. ثم تعود فتنحسر عنها تاركة على أديم الصخرة بللها.

أجل، جاء لزيارتك ليلة أمس. أنت متأكد من ذلك. إنها حقيقة.

أجاء يطمئن على عبد من عبيده، وأن ينفث فيه من أنفاسه؟

ولكن.. هل أنت تريد أن تكون تابعاً له، حقا؟ اذا كنت قد كففت عن الايمان، فهل يعنى ذلك أنك انتويت أن تنضم إلى صفوفه؟

«كلا».

أنا لا أريد أن انضم الى أحد. لا أريد أن أكون تابعاً لأحد. أريد أن أكون لعقلى وحده. لا سلطان لأحد على.

هل ينحدر بك الحال إذن إلى أن ترفض الخضوع ابتداء، وتنفض عن قدميك الأغلال، لتمضى فتتردى فى فخ أشد إحكاما؟

إنه بحسب ما وصفته الأساطير، صار ما صار عليه لأنه بعد أن

كان من الاتباع المبرزين، تمرد وقال. «لا» ولكنه عندما قال هذه «اللا» قالها كما ذكرت تلك الأساطير ليس لوجه الله، بل من أجل أن يتبوأ العرش، ويستولى عليه، مفتزعا إياه من صاحبه.

بينك وبينه على أى حال اختلاف جذرى. أنت لا تريد أن تخضع، كى تسرد قدرتك على البحث عن الحق، ولا تريد مثله أن تكون زيوس أو تنصب نفسك قام أى ملك أو إله.

إنك تريد، وإنى على ذلك أجزم، تريد فحسب أن تعود لتبحث عما تريد أن تبحث عنه، عما هو جدير بالبحث عنه، عما بغير البحث عنه لا يضحى للحياة هوية أو مذاقا أو معنى.

أما هو .. فلماذا زارك ليلة البارحة؟ هل يعتقد أنك أصبحت له؟ هل وهنت جذورك، وتخلخل ارتباطك بتربتك، ولهذا يريد أن يقتلعك منها، ويلقى بك الى زكيبته، زكيبة العظام النخرة؟ ربما اعتقد هو ذلك.

أما أنت فسوف تقول له بدوره «كلا، بل وألف كلا» فقد طرحت عن كاهلك هذه الاكذوبة الكبيرة التى هى هو.

هل طرحتها عن كاهلك إلى الأبد، حقا؟ أعرف كم هى صعبة ومحزنة هذه الانتفاضة، وهل أضحى هناك ما هو سهل؟

أين أنت ، يا مخلصى؟ أين أنت؟

# عناق الصخر

خبيث، متحجر القلب. قادر علي الانتظار بصبر.

أمضينا أياماً ممسوجة حوله، مركزة عليه الاهتمام له واليه. ابتلع الجهد فى الاستيعاب والذمم والتطبع.

حول سريره، فى الغرفة ذات الستائر الكثيفة السوداء من حولنا، مضينا نتابع أنفاسه الثقال، متوقعين، وإن طال توقعنا، أنها ستخمد.

كان يجب أن يقصى ليتسنى رؤية الوجود.

فى قرارة نفسى، كنت أقول لنفسى:

«ليس العالم هو أنت».

منذ الذى سيزيح الستائر المسدلة على عيوننا؟ ·

لا استطيع أن اتنبأ لك بخطوته القادمة.

سوف يدعك علي الدوام تتوقع، وتتأهب لشىء ما سوف يحدث، وهو لا محالة سيحدث، وإن كان لن يحدث، فذلك الذى لن يحدث هو ما كان يجب أن تتوقعه منه، على أى حال.

قالت :

«لابد أن نتخلص، أجل نتخلص منه، وبهذا تؤول الينا الثروة».

قلت:

«ألا تشفقين عليه؟»

قالت :

«أنا آلهة العقاب. لم يحدث لأحد أن علمني البكاء».

قلت :

«يقولون الكفن ليس له جيوب».

قالت :

« ولكن متى كانت الثروات تستبقى فى الجيوب؟ يمكن زن نستبقيها فى أماكن أخرى أكثر أمنا ».

قلت :

«أجدادنا احتفظوا بين أسنانهم بقطع ذهبية».

علقت على ذلك قائلة:

«كانوا ذوى حنكة»

قلت :

«ادخلوها فى فمهم المطبق، إلا من ابتسامة تكتسى بها الشفاة».

لمعت عيناها، وقالت فى حزم:

«يعرفون أن الرشوة أسلوب انجاز أعمال».

أردفت تقول:

«ما رأيك؟ ألن تستيقظ اذن؟ افتح فمك. دعنى أرى ماذا تخبئ وراء ابتسامتك الجهمة، يا من يجرى حب القمار فى دمك».

تخطئ أشد الخطأ اذا ايقظت غضبه، أو حاولت ذلك، فهو لا يغضب سريعاً، ولا يُستثار. إسأل فى ذلك علماء الرياح والجبال وبواطن الأرض، حيث كل شىء مرجل يغلى فى الخفاء.

نبيت ونصحو على خدعة لازال يتمسك بها عدد لا بأس به من معارفنا. استطاعت هذه الخدعة أن تبدو وكبديل، ولكن خدعة هؤلاء ما لبثت أن بانت عليها الاصابة بداء النفاق والملق.

يدعونك إلى الاستسلام لأمر سهل أليف، فى متناول يدك، وما هو بذلك، يعطونك إحساسا كما لو كنت تدخل مقهى اعتدت ارتياده، والتردد عليه، وإذا بك بتأثير ذلك الايهام قد أضحيت كسولاً خاملاً لا تبذل جهداً. تنادى النادل فيأتى إليك بالطلبات. يضعها على المنضدة، ويسألك «أى خدمة؟» كلماتهم غواية وفتنة. كلماتهم ليست إلا دعارة. وحتى لو اقتادتك تلك الكلمات إلى قمة المجد وأجلستم على العرض، فلن تلبث أن تفيق من تأثيرها المخدر، فتجد أنك شارفت على الجنون، وأطللت على هاويته.

يتظاهر بأنه يتخذ حيالك موقف الدفاع. وأن ما يحدث من شر أو اعتداء هو منك، وأن المعتدى سوف لا يمر دون عقاب.

ترديت في الشراك. السمراء يسمونها «واقعية» والشقراء يسمونها «مثالية» وكلتاهما بغيضة وإن كانتا قد اجتذبتا الكثيرين، وأوردتاهم مورد الهلاك. وعلى الأخص الثانية. تلك الشقراء اللعينة راح ضحيتها أكثرَ بكثير من اردتهم الاوبئة والبراكين والفيضانات. دوامات الريح والأمواج أرحم بكثير من «مثالية» هذه التي يمكن أن تستحيل إلى مرض فتاك، ينهض جوانح من استبدت بهم، ويطيح بمن مارست عليهم نفوذها الأخاذ.

«الواقعية والمثالية، هراء؟ والحقيقة؟»

«عنها سوف أحدثك، فيما بعد».

استلهمت وجودك الدائم، عكفت على تفسير كلماتك. استنبطت معانيك.

صوت مثل الغراب، يقتات طيناً، ولا يرضى عنه بديلاً.

صرخت بلا صوت:

من أنا؟ في هذه الحديقة القاسية، من أنا؟

من المسجى علي السرير، وقد الصوت الهامس المدوى لم تتحرك شفتاه، ولكن وفد إلى الصوت:

لست سوى آلة، عدسة مثلا. أنت موصد يتابع ويسجل.

احترم الحقيقة.

شجنك ليس سوى المشجب الذى تعلق عليه الرغبة فى الاستجلاء. لا تقل أنك فضضت يدك من هذا الوجود كله، وما عاد يعنى بالنسبة لك شيئاً، لا تقل - على الأقل لى أنا - أنك انزويت هنا مختاراً، وأنه ليس لك اختيارات أخرى. بل إن انزوائك هنا لا معنى له إلا أنه ينم عن إحباط دفين، سببه العجز السابق عن المعرفة ورؤية الحقيقة.

انت واهم اذا اعتقدت انك تشكل الشيء المرئى أو تستحوذ عليه. كل ما لك وما عليك، هو أن تجعله مرئياً هذه سعادتك الوحيدة، وهذه هى علة انزوائك هنا. ليس هذا الركن ما تريده حقاً، ليس هذا الركن خاتمة المطاف. هناك ما هو أبعد من الحياة ومن الموت. ومن كل الأركان. لكنك ما كنت بقادر أن تدرك هذا. واذ يتبدد وجودك من بين يديك، كما تفلت حفنة من رمل سيناء من بين أصابعك، فأنت تبلغ منتهى الشقاء، وبهذا الركن تلوذ. ولكن ليس هذا خاتمة مطافك، أيها الجهاز المعقد التركيب، والمشحون بطقات كونية.

ماذا تريد منى؟ لماذا تعذبنى؟ ألانك تحبنى، ولأننى زحبك؟ أنت تعرف كم أحبك. وكم أتعذب.

استحثك وأغريك على الاقتراب قدر الامكان من حقيقة ظلت

محاطة بالتحفظات والأكاذيب. من أجل هذا جلبتك الي هنا.

إن الرغبة الدفينة فى التلاقي والملامسة هو الذى دعاك إلى أن تنزوى فى هذا الركن الترابى العدمى، وأن تحذف وجودك. ليس ذلك من أجل الانكباب على نفسك، فهذا افقار لوجودك وللوجود كله، ذلك الوجود الذى رغم مخاتلاته ينتظرك، كى تعرفه، كى يأخذك بين أحضانه الرحيبة الرهيبة، وقد يسحقك عناقه، ولكنه عناق حب واشتياق.

أريدك أن تحرم نفسك من الايماءات السهلة التي توقعك فى نوع من خداع النظر.

اخترم نفسك.

تلاش أمام ما يرى ويسمع ويحس.

إنمح إذن، حتى تحتل الحقيقة المقام الأول.

تقدم إذن، لا ترهب الألم. إن صرختك على خشبة الصليب، وعظامك تتكسر هي شهادتك على أنك رفعت قامتك كى تعرف .

هناك على الدوام ما هو جدير بأن يعرف. لا تقل «لا شىء هناك» بل هناك ما هو ذهل. ومن أجل البلوغ الى هذا المذهل فلتتحطم. وان كان هذا التحطم ليس على أى حال محتما. لا أحد يعرف . كل شىء مغامرة.

تقبلها.

ارتض الرهان.

ما الوجود ، يا سيدى؟ ليس الوجود أنا ولا أنت. استرد توازنك من فضلك وتظهر. ليس المهم أنت، بل الوجود كله هو المهم. ومن خلال الوجود تكون أنت، ويكون وجودك. فرديتك اذن نتيجة، وليست أصلا ولا بداية. أنت لا تكتسب وضوحك إلا من مواقفك الوجودية، أما قبل ذلك وبغير ذلك فلست سوى مجرد افتراض. مجرد افتراض أنت.. هل تسمعنى؟

# تساءلنا كثيراً

تساءلنا كثيراً ماذا نسمي مقهانا؟ من تحيرنا وفى النهاية سميناه «مرحبا». كل يوم، بل كل ساعة نرحب فيه بوافدين جدد. نقدم لهم أقداحاً خاوية. وفى السكون لا يرتفع صوت مغنية، ولا الصاجات تلمع بين أصابع راقصة.

انهم يعدون المنضدة المجاورة، يزيلون من عليها بقايا الليلة الماضية. ينفضون الغطاء الذى بهتت مربعاته الملونة، ويضعون فى منتصفها إناء الزهر فواح الرائحة. ترى من الوافد الجديد؟ سمعتهم يتحدثون عنه ويتهامسون. كانوا عنك يتحدثون، فقلت كالمعتاد «مرحبا».

الشيء الذى لا يمكنك أن تفسره، لا تهمله. عليك أن تقتصر بالنسبة له علي الوصف. ولنمض إذن إلى الوصف. دعنا نرى ماذا سنقول، فى مجال الوصف، معاً. ولكن فلأهمس فى أذنك أولاً، وأسألك: هل أحضرت معك زمزميتك؟ أعرف أنه جاء إليّ، وهو يجلس

الآن، يستمع الى تشيكوفسكى. تلك النغمة التى كان يترنم بها بصوته الأجش فى شبابه، تتردد فى أرجاء سيارتى، وأنا امضى إلى هناك.. وأخاله جالسا بالمقعد الجلدى المتهرئ، يتطلع من النافذة إلى بعيد، ويصغى إلى مقطوعته القديمة المفضلة.

أجساد تختفى، وأخرى تحل محلها. تخطر لحظة، تغنى، ترقص ربما مثل الطير مذبوحاً من الألم، ثم تختفى. لا شيء فى هذا المكان تغير منذ جئنا اليه، واضحينا على أهبة الاستعداد أن نختفى منه بدورنا سوف يحل محلنا غيرنا، كما حللنا نحن محل غيرنا. أجساد تتكدس فوق أجساد، وعمائر تشيد فوق عمائر، والزمن القهار دائر. هل يرقد أولئك الذين ضحينا من أجلهم براحتنا، مرتاحين؟ هل يتنعمون الآن براحة البال، لقاء ما بذلناه من دماء وعرق؟ هل تحرسهم فى رقادهم آهاتنا وصرخات معاناتنا؟ لم يبق من البيوت التى بنوها فى الزمان الغابر سوى أطلال، وفى بعض الأحياة اندثرت بأكملها، ولم يبق منها نحت أو حجر، ولا حتى جدار. ماذا كان مصيرهم؟ أكان مثل مصائر تلك العمائر التى بنيناها لهم نحن؟ ونحن، من نحن؟ ومن أين يفد صوتنا هذا؟ أهو صمت أجوف نملأه بخيالات، ونتوهم أننا نسمع فيه من حناجرنا أصوات. واذا كان كل هذا مجرد خيال، فمن أين تأتى هذه الخيالات، ومن أصحابها؟ إنهم

كما لو لم يكونوا قد وجدوا. كما لو لم نكن قد وجدنا على الاطلاق يوماً. وفى القريب العاجل، لن يكون لنا قائمة بدونها، نحن الذين نجار الآن بالشكوى ونثرثر. ما من أحدهم عاد إلينا ن حيث ذهب كى يخبرنا، ويطمئننا على اللحظة التى ستمضى نحن فيها بدورنا إلى هناك، ولا نرجع. لهذا فاننى، يا بنى أنصحك أن تخمد فى أعماقك القلق، ولا تسأل،. اهتبل السعادة كلما وجدت إليها سبيلاً مشروعاً لائقا. اتبع املاءات قلبك، كى تكون راضياً، ولا تقل يوما «حرمت من هذه المتعة أو تلك» بل قل «شكرا، منحت من المتع ما لم أكن حتى استحقه، واعلم أن أكبر المتع هو أن تفعل الخير لغيرك. أن تفعل الخير لجمال الخير، ولا تنتظر أجرا. لا تكن من الضالعين فى عمل الشر، فالشر دميم، ولن يكسبك متعة، حتى لوبدت لك الأمور على غير ذلك. متع نفسك، يا بنى اذن، حتى اذا ما جاءت ساعتك، وانفتح لك الباب، لتدخل منه الى حيث أوزوريس وحوس، تكون قد نلت - بلا طمع - من المتع كفايتك.

سوف اتركك الان. ربما مليا. أرى من هم اتون اليك سوف يمارسون معك طقوس الخداع. لا بأس، تحمل عواطفهم اللزجة. سيمضى كل شىء بعد قليل لحال سبيله، وسنبقى مرة أخرى بمفردنا، لنجتر مواضينا. ونؤدى طقوس الخلاص. لن يبقى نهم أحد

طويلا. بعض الدموع تذرف. ثم يخيم الصمت من جديد، ونتطهر. سوف تسود العزلة. عزلتنا هذه هى المتعة. التي لا يقوى عليها أحد منهم. وإن فى بعض اللحظات يتمناها، ويطلبها البعض، دون أن يقدم عليها. أنما نحن فقد خلصنا. اتركك الآن كما قلت. وربما عدت إليك.. ربما.

سوف يقول لهم ذلك المتشح بالسواد، شاحب الوجه الذى تقدح عيناه شررا «لاجدوى يا ماما، لا جدوى يا ابنتى». «عودوا من حيث أتيتم. عودوا إلى البيت».

آمل ألا يكون الآتى قد جاء من أجل نقلك، كلك أو بعضك، إلى حيث سيتخذك صاحب الغرفة التي تؤجرها له أمي مادة للاستذكار.

نبيل، اتسمع الصليل! إنها قادمة! تخل عن منضدة اللعب. ارم الدش والدو، واهرع الى سريرك الحجرى، أرقد فيه، وتظاهر بأنك نائم. إنها قادمة. أتسمع الصليل؟! دعك من وفاق اللعب، وأعمل حسابا لصليلها، فأنت جديد بيننا، وهى لا تسعى إلا إلى المستجدين، أما الآخرون، فهم بالنسبة لها مستنفدون. انفض عن شفتيك سيجارك الأسود، وتظاهر بالرقاد والنوم. إنها شكليات فحسب، ولكن حذار من عدم اتباعها.

ستلعب الورق الليلة، ام ستكتفى بالدومينو؟

استيقظ، استيقظ. امتد بك الرقاد. تأخرت. لا أريد منك شيئاً. سيان عندى رقادك أم صحوك. ولكن هناك التزامات. المسئوليات كلها، لا تتركها على وحدي.

تعال، فلنشرب قدحاً، نذيب همومنا فيه، وننسى. هيا خذ هذا الفارغ. لا يعنيك. إن كان مشروخا، املأه كلما فرغ، ولنقل متظاهرين أننا نشرب «في صحتك». سوف تنسى من أول رشفة، فالتظاهر يحقق بعض الأحيان المعجزات. كنا فميا مضى نتظاهر أننا متواجدون. وقد صدقونا، وبلغ البعض منا بفضل ذلك الى نتائج باهرة. انت تعرف عمن أتكلم، وعما أقول «في صحتك». خذ هذه. لا تعاتبني. زنني أطوح بالقدح بعيداً حيث سيهوى وتسمع حطامه يتكسر علي الأرض عند ارتطامه ببلاط المشى الصلب. «الذى انكسر لا ينصلح». لازالت أشلاء هذه العبارة تتكسر فى اذنى. تعال. تعال. الق رأسك على كتفي. اسندها إلى تجويف صدرى. ولننعم بلحظة بكاء صامت صادق يغسل الأدران والهموم. هذا ما نحتاجه حقا، وبعد ذلك، سوف ترى سوف يتأتى لنا تحمل مسيرتنا.

هذا شأننا جميعاً هنا، نحن الذين حللنا قبلك. فلست الأول ولا الأخير، أيها الفارس الأعزل. أقول لك إهدأ واستسلم، وسوف يتغير – متى عرفت قوانين اللعبة – كل شيء من حولك.

تعـال، إذن نلقى النرد ونلعب الطاولة. ثمـة بصـيص من ضـوء يرافقنا. ترى هل أضحت لنا صلاحيات القطط، لا يطرف لها جفن، وفي الظلام تبصر؟

# حجارة رمادية بنية

انفصلت. انطويت علي نفسك. صرت من مكمنك غير مكترث بما يجرى خارك. اذا ركزت فعلى ذاتك، أو على خارج عرض من خلال ذاتك أيضا التي مهما تصورت فهي لا تقل عنه عرضية. تختلط عليك الأمور، فتركن إلى السخرية. تصورك الذاتى للحقيقة الموضوعية لا يلبث أن يفضى بك إلى نوع من السخرية، تهاجم الأشياء والاشكال معا، من زاوية ما يضفيه عليها انطباعك الشخصى.

تنتزع الوقائع من مجالها العادى. تدفع بها من لعبة من الروابط غير المتوقعة، ينتابك الدوار. يختلط الواقع والجزافى خارج كل حدود المألوف اليومى فيكتسى ما حولك بجدة جهمة خشنة، وإن ظل الطابع السائد وهماً موحياً بعدم الوجود، أو على الأقل بأهمية زائفة، خداعة. وبموضوعية مشكوك فيها تدور عيناك فى محجريهما، وأنت ملازم جحرك، ملصقاً ظهرك بالساتر الترابى. تنظر إلى ما حولك بازدراء. تعادى العالم الخارجى، مستمداً أحاسيسك هذه مما تثيره

الذاتية فى الأعماق، مما لا يمكن للتفاهة الانسانية ورثاثة الحياة اليومية أن تدركه تتشبث بمكمنك، وفى خضم الغثاء والرثاثة تصرخ فى أعماقك هامساً. إنى أكاد اسمعك، بل وأصرخ معك. غير معقول أن يكون هذا الغثاء خاتمة مطاف. وتظل تشعر بالمسئولية، وتظل تعتبر نفسك مسئولاً. مسئولاً عن ماذا؟ عن الابقاء علي ما له وحده معنى فى الحياة الانسانية. تشعر بأن كاهلك أنت أيها الجرذ محملاً بالمسئولية عن الإنسانية التى صرت بعيداً عنها بفراسخ. تركتها بالخارج، أو هكذا اعتقدت، ولكن ها هى تلاحقك، وهل تستطيع زن تفلت منها؟ حتى فى مكمنك هذا، هل تستطيع أن تهرب؟ هل كتبت لك ذاتيتك خلاصا؟ اسمعك فى النهاية تتنهد، وتزفر قائلا على الأقل، لم أخن، ولم أتنصل، بينما سوف يقول-آلاف الامعات خارجك أنك جبنت وهربت، فهل نفعتك إذن ذاتيتك؟ سوف تنكس الرأس وتقول علي الأقل هى الشىء الذى يبقى الجدير أن يبقى. تقصد. ولكن اتظن أن هناك ما يبقى؟ والى متى؟ لا تجزع. سوف ادعك لبليتك. وأنت تعرف أن شر البلية ما يضحك. لست ألح عليك بالاجابة. هنيئاً لك تهكمك الأسود.

(برهة صمت)

قوة سلبية هو؟ هذا التهكم الأسود وة سلبية؟ ستار يقف حائلاً

بين العقل والنظام الذى استتب علي وجود هذا العالم، فلا تنجذب إليه منخدعاً به؟ دعنى إذن، أفكر معك، وأتأمل. فلئن كنا قد حرمنا هنا متعاً عدة، فقد أتيحت لنا متعة قصوى، علينا الا نضيعها. أسمعنى من فضلك ما تقول. ارفع صوتك. لا تخش. لن يسمعنا أحد. وليت أحداً يسمعنا.

إذن، دعنى أقول لك:

أنت لست أداة فى يد قدر متحكم، أو واقعة فى تاريخ حتمى، أو بطولة ظافرة أو مخفقة. لم تعد لا الأخلاقيات، ولا السياسات ولا الاجتماعيات، ولا حتى السيكلوجيات هي العصب، إنما يتعلق الأمر باستقصاء للوجود، بغير التفات الى أى اقحام يشوه من الرؤية. العصب صار عملية استجلاء مع سبق إصرار وترصد. فى ركنك المترب أرفض تمدد الشخصية. لا تجعل الجثة، تتضخم وتتضخم، وتزحم أرجاء الوجود الذى أنت مدعو الى أن تستكتشفه. آن الأوان كى يفك إسارك، وتتحرر. وفى هذا المقام احذر أن تستخدم مطية لأغراض من خارجك. أنت لست مدعواً إلى حفل تكريم زو ترفيه، وإنما أنت مدعو لمجابهة صعاب. تخل إذن عن كسلك واسترخائك. إن عمليات التجهيل والتعمية التي مورست عليك قد ألقت بك فى صميم تيه متشابك الدروب، وعليك أن تشق طريقك. أنت مطالب بعملية

كشف مباشر، قدر الامكان، للعالم الذى توجه اليه، أيها الإنسان، تساؤلاتك. لا تقل يومنا كفافنا. كل اجراءات التجريد والحذف والتعرية التي استخدمت معك انما استهدفت وضعك موضع التجربة. وقل دوما «ادخلنا في تجربة، تلو تجربة».

تهكمك إذن يهدف الي قطع الروابط بكل العادات المتولدة عن الانجذاب إلى وجود ذلك العالم. يحررك من نفوذ الخارج الذى لازالت عيناك تدوران فى محجريهما وترقبانه. أهذا ما يهدف إليه تهكمك؟

حقا، لم يبق لنا إلا الضحك.

لكنه ضحك يختلف عن الضحك الأحمر الصادر عن حناجر متوردى الخدود، المتخمين بالرفاهية والصحة، وعن الضحك الوردى الصادر عن نجوم الأناقة ورواد الصالونات المترفة، بل وعن الضحك الأصفر، حيث يضحك المرأ رغما عنه، متظاهراً بأنه لا يضحك.

ضحكنا نحن، الضحك الأسود، ضحك صادر من الاعماق. صاحبه يعرف أنه منسحق، ولكنه يضحك، يضحك من انسحاقه ذاته. أنه ضحك العجز والتحدى فى آن واحد. إنه ضحك الشجاعة، وليس ضحك الخنوع، ولا ضحك النفاق والغثاثة.

ضحكنا نحن يختلف أيضا عن ضحك الرواقيين، وعن ضحك البوذية أمام الفناء، كما يختلف عن تهكمية رابيليه وانتقادية فولتير

والضاحك الباكى فكرى. إن المرء منا يحتفظ فى الضحك الأسود لنفسه بسر ضحكته. وهى ضحكة لا معقولة بحت، ضحكة من يكتشف بداخله قوة مبرئة ومدمرة: قوة وصلت إلى حدود اليأس والعدم، وأوشكت على اجتيازه وتجاوزه.

# ارتعاشة يد

نسمة في الأرجاء هائمة. جذوة لهب تتلوى. تهمد ثم تهب من جديد. جسم تائه، زائغ مراوغ، يلوح من وراء قطع الأثاث وزجاجات العطور والتحف، مثلما من ثقوب مشربية. علي زجاج النافذة يلهو النور بانعكاسات الاشكال، يغزل من الظلال شبكة أوهام.

لم يصدق. لا يريد أن يصدق أن ثمة عالما يختلف عن عالم الحواس، وأن الصدق لا يوجد في المنطق وحده.

حلم بوجه أسود. استيقظ بالليل قبيل الفجر. ذهب إلى الحمام. وجد صاحب ذلك الوجه مسجًى في البانيو. أغلق الباب برعة، وتراجع غير مصدق. عاد يفتح الباب. لم يجد أحد.

في ليلة أخرى، أحس بطعنة في جنبه. استيقظ. وجد من يقفز من الشباك، ويهرب. نظر إلى جنبه. لم يكن ثمة أثر لأية طعنة.

أول ما يفعله كل صباح، يشخص إلى الأسوار. يمسح الفراغ بعينيه. يحاول أن يتجاوز بأنظاره الجدار.

لا يطول بصره إلا ما يطوله كل يوم، أجزاء معمارية ومنشآت، كتلاً حجرية عليها نقوش، أعمدة، وتيجان، ومجموعة من جرانيت ضخم، قد تكون وقد لا تكون – أجزاء من منار هده ربما زلزال فى قديم الزمان، وجسم سيدة بدون رأس، ترتدى رداء مطرزاً بعقد بارزة، وبخيوط حائلة الألوان – قد تكون ملكة بطلمية، وقد تكون مجرد محظية – وإلى جوارها ونش بحرى، تدلى منه فوق مكان الرأس خطاف وسنان.

أريد الليلة، فى هذا الصمت الذى يغمر غرفتى، مثل بحر ساكن، أن ألبس سترة غوص من نسج خيالى، وأغوص داخل نفسى.

أترك على الشطئان حياتى، وأنزل حيث الظلمة حافلة بالأسرار. فى الكهوف أجوس. أتوق أن أعرف هل ماضى حقيقة أم كان أضغاث أحلام؟ هل كان لأيام طفولتى وصباى وجود؟ أم ترى تلك الأيام، تلك الصبوات ولحظات السعادة والوفاق، لم تحدث بدورها قط ؟ أم أن كلشىء لم يكن .. وأبداً لن يكون؟!

شفتا جمجمة ترشف النبيذ من كأس مكسور على ضوء شمعة منطفئة، وتقضم الأسنان تفاحة حجرية، تعمل فى صمت بداخلها دودة دؤوب.

السكون ستار أسود، لا يهتز. لا يعكره، سوى ساعة رملية، تبكى

دقاتها، وتطلب الغفران من زهرة ذابلة، قاسية القلب، حطت عليها فراشة محنطة، لا تقوى على الفراق.

وذات مرة أحس بصفعة على وجهه ثم دفعة في ظهره. استيقظ في الصباح، وأخبر من حوله. كشفوا الملابس عن ظهره، فوجدوا آثار دماء من صفعة كف مرتسم في موضع هناك.

يجب أن تعرف. قيمتك هنا بقدر كتمانك للصراخ . فاحتفظ بكل جلدك، ومن يصبر حتى المنتهى يخلص. والمنتهى هنا ليس ببعيد، بل هو أيضا قادم أكيد. تستطيع من أجل المقاومة أن تعصب رأسك بعصبة مرصعة بالشوك والحسك. لحظة بعد لحظة ستكتسب المهارة. وكم من الصناديد ذائعي الصيت بدأوا من هنا. هل تسمعني؟

اسمعك، يا نعيم، أسمعك.

وأنت ، اسمع منى :

لن يكون هنا شيطان يتقمصك، ولا ملاك يحرسك. سوف تكون أنت، أنت فحسب، عدما متناميا . ليس من أنهار، هنا. اللهم الا أنهار الرمل. لن يكون هنا سوى أنا وأنت. من أنا؟ صوت صارخ في البرية، يزلزل أسوار الصمت.

من السجن الكبير خرجت إلى سجن أكبر. لا حراس ولا سجان هناك تمضى من حيز إلى حيز . هذه مسيرتك.

توصلنا إلى تركيب ما يقرب من ألفى قطعة. جهد كبير. ثلاثين عاماً ظلت ناقصة. جمعناها. عمل دؤوب. تجاوزنا سومر. وأوغلنا بعيداً عن كتاب الموتى. ولكن هل فككنا الرموز؟ إن مريت لم تكن عشيقة – هل حقا فككناها، هذه الرموز؟ – بل كانت .. ربما ابنة.. أو حفيدة للفرعون. وهذا أقرب إلى معانى الرموز.

عدت إذن تتجسم وتتضخم، وعلى حسابى أنا الذى أضحى على أن أقنع بأن انزوى أتضاءل، ألقى بنفسى فى الظل، وأنمحى.

عبر مزيج متنافر من المعاناة والمسرات اليومية، تلوح من حولك وجوه أسقطت عنها الأقنعة. الحوار بين الشكل والخامة اندثر. أضحى الحوار رمزاً، عبر حوار بين أشكال وأشكال، دون الوصول الى معنى.

الحياة ستظل هي الحقيقة الوحيدة، التى كان يجب أن يحيوها دون امكان فعل شيء آخر.

يوما ما، سوف يخرجون من هذا الأسر؟ من هذا اليوم؟ يوما ما سيعودون إلى المدن الخرافية؟

ربما... ولكن ذلك اليوم متى سيكون؟ وعندما سيخرجون كيف سيكون ذلك العالم الذى إليه يخرجون؟

فى ركن منزو، ومن ثقب رحت أطل. أرصد ما يحدث بالخارج،

ولا أمل فى شئ .

لا يستطيع أن ينساها ،، يتسلل إليها بالليل. هنا الضباب بخور في كل الأرجاء منتشر، والطيور تفتح مناقيرها ولا تغرد .

طيفها العذرى، مع أول شعاع شمس ، سيختفى. والآن، فى ضوء القمر، كل ليل، ترتدى ثوب الفرح. ويرقصان بعاطفة مشبوبة،. وفى الحلم، على دقات الطبول، يعاندان القدر:

واذا لم نعترف بذلك الصوت، فما البديل؟

نحن التماثيل، نسأل، وعلى شفاهنا بسمة لقاء الموت.

سأل ابنه. هلى يستطيع أهل الجنة أن يفعلوا شيئاً لأهل الجحيم، اذا ما صرخ هؤلاء قائلين انقذونا من هذا العذاب المقيم؟

لم يجب ابنه. وما كان من عادة هذا الصموت أن يجيب. وحتي لو أجاب فبماذا كان يجيب؟ بماذا يجيب؟

دعنى أنا عليك أجيب: ذات ليلة...

كلا، كلا،

ليس ثمة بداية يمكن الارتكان إليها. أعرف ذاكرتى ضعفت، واضحت أفكارى مضطربة مختلفة، كثيرة التكرار غير متماسكة، استرجع ماضياً قديماً كى أجد أرضاً راسخة أبنى عليها. أملأ فجواتها ببعض التخيلات التى تتمثل لى حقائق، وأن لم تكن قطعية.

أكافح ضد الاهمال والنسيان كل لحظة.

دسست يدى فى تجويف صدرى. لم يبق لى سوى قصاصات من ورق أصفر ومسودات علاها الصدأ. وضعتها جانباً. الى أن غلبنى ذات يوم «جوع إلى الكتابة» استبد بى، فجلست أكتب. كتبت صفحة تخيلت فيها بيتاً لم أسكنه، لكن متعة أن أصف بالكلمات هذا البيت، وأن أقوم بتأثيثه، وأبحث عن سكانه والمترددين عليه، ملأنى سعادة بحياة قد أكون عشتها يوما، وقد لا أكون.

فى السكون، ندت من قطعة أثاث، أنة. فى العتمة، نافذة تفتح. بصيص نور يتحسس الأرجاء، ويتلصص. فى البيداء، ساعة حائط تدق. تعلن زمناً. ومن الشفتين المطبقتين تمتمة «بحثنا عن سعادة وفشلنا» ثم صفير قطار، فى برد الصباح، يقترب. يقف عند محطة خاوية، وينتظر.

تعبت. وددت أن أستريح. أجلس على كرسى . أفتح نافذتى. أنظر إلى البحر، أو أطل على حديقة. أتنفس هواء نقياً، يملأ صدري.

وددت أن أستريح، حتى من ذكرياتى التى أضحت بدورها عبئاً ثقيلاً.

كنت تقول «وددت زن أستريح».

جاءنى فى المنام أمس وقال: أنت تصوب أنظارك فى اتجاه غير

صـحـيح، وأنت تعـرف فى أى اتجـاه يجب أن تصـوب أنظارك. ألا تعرف؟

ثم أردف يقول: أشعر زنك تستنفزنى بتصنعك الجهل بأمور مثل هذه. على الأقل لا تسـأل. لا إجـابة الآن على أية أسئلة. الأسـئلة مـا عاد لها إجابة . حيثما نحن الآن لا إجابة.

العربة الحنطور تقف هناك منزوية. عجلتاها الخلفيتان مـالتا. ما عادتا تقويان علي حمل الهيكل الخشبى المقهور، ولا الغطاء الجلدى فوقه. المصبـاحـان علي الجانبين يضـيئـان بضوء شـاحب، شـاحب، شاحب. تتراقص الذبالتان المتعبتـان على أنغام تخت يلفظ أنفاسه. المقعد الجلدى خال، ممزق، والسائق ضامر العود كأنه مومياء، ينظر الى بعيد.. فى الظلمـة.. عله يرى عند مفرق الطريق عشيقة وعشيق يريدان نزهة على النيل، أو ربما فى طرقات معتمة، عله يرى سكيراً عربيداً يلقى بنفسى على المقعد لا يفيق، أو عله يرى شـبـحـاً من الماضى السـحـيق، بسـترة سـوداء وطربوش مـائل علي الرأس زنيق، يطلب منه أن يحمله إلى روض الفرج. وهل يدكر أحد روض الفرج؟

نفخت فينا الريح. شتت منا الأشلاء. بُعثرنا فى الأرجاء. انفصلنا عن ذواتنا. لم يعد لنا أسـمـاء. مجرد نكرات نحن، كلمات، فى كثير من الأحيان لم تكتما حروفها، يرصها علي الصفحات مرتعش اليد،

ولا مهرب لنا من المحاة.

من قال سيُفك إسارنا، يوما؟ سقطنا من السطور خارج السِّفر. ما عدنا سوى أحرف متآكلة. نفايا كلمات نحن، مواصلة غامضة لرعشة خوف تطمسنا، ولكن هل نستسلم للصمت؟ وهل نقدر على الصمت؟ إننا نتقافز؟ ونعود على السطور نُرَصُّ في شبه لغة ما عاد لها أصل. مجرد خربشات نحن، على سطح لا نملك منه ولا حتى الحيز الذي تشغله حروفنا المتآكلة.

ومع ذلك، بابتسامة رائعة، في وقفة تعبير، رغم كل شيء، عن قوتي.. مجرد أكاذيب.. أسير في طريق المواكب المقدسة.. ألبس التاج المزدوج، وأغطي أجزاء من جسمي برقائق من ذهب. أزيلوا الكيماويات والأتربة والردم القديم من طريقي. لن تعثروا لي على مثيل. لست تمثالاً بين التماثيل. بل أنا...

كوب الشاي على المنضدة، والليمونة اعتُصرت . قالت مغنية الليل في لاصباح «أمسية ماجنة مع تنين جهم». اللون أصفر على أصفر، والجسد لف في قماش أبيض.

**الدقي مارس ١٩٩٤ – سبتمبر ١٩٩٧**

● صدر للمؤلف

- المرأة والمصباح - رواية - الأنجلو المصرية
- قضية الشاويش صقر - قصص - الأنجلو المصرية
- لحظة لقاء - قصص - الهيئة العامة للكتاب
- حكايات الحب اليومية - قصص - روايات الهلال
- الاغراء الأخير - رواية - دار المعارف
- ليل آخر - رواية - هيئة الكتاب
- نساء فى المحاكم - قصص ولوحات - دار المعارف
- فتاة على حصان أحمر - قصص - الأنجلو المصرية
- الملاك - رواية - روايات الهلال
- نورسان أبيضا - قصص - مختارات فصول
- زمن البراءة - أقاصيص - كتاب الجمال
- قبلة الريح - رواية - مختارات فصول
- كن بشوشا - قصص - كتاب الجمال
- الأيام السعيدة - قصص - مختارات فصول

● عن المؤلف :

محمد الراوى - حوارات الحرية والعزلة - النهضة العربية

# الفهرس

الأمل للطباعة والنشر




ألبسونى قناع ثور تارة، وتارة أخرى فروة أسد، وزعموا أن الأسود والثيران فيها من صفاتى الفحولة والشجاعة، ولهذا فهم يعتزون بلبس قرونها وجلودها تبركاً بى وتيمنا، لعلى أحِلّ فيهم، كما حللتُ بالثور والأسد، وإن كنت أصدقكم القول أفكر فى التمساح كلما تحدث... وفى الأفعى ذات الصليل. كما أرثى لذلك الذى ألصق بكتفيه ... نسر، واعتقد المسكين أنه يستطيع أن يعلو كثيرا كثيرا مثلى، فلما ... الشمس، وسلطت عليه أشعتها الدافئة ذاب الصمغ فتردى إلى ... وهو جزء من يتطاول علينا، ويتجاوز الحدود عامداً.



واحد جنيه
الأمل للطباعة والنشر